حرفا "الباء" و "الفاء"

بحث للدكتور عمر فروخ

لاشك فى أن الأبجدية كانت نعمة عظيمة على المدنية والثقافة واللغة والعلم . ولكنها كانت أيضاً قيدا على اللفظ الإنسانى .

لسنا نعلم متى استطاع الإنسان أن يضع الأبجدية ولا نعلم فى أى الأقطار قد وضعها .

ولكنا نرى من الأبجدية وجهين. ظاهرا وباطنا. أما الوجه الأولى الصاهر فهو أن التجار الكنعانيين (ومن الناس من يقول : الفينيقيون خطأ) هم الذين نقلوا الأبجدية (بعد أن وصلت إليهم من مكان ما) إلى الإغريق . ومن الإغريق انتقلت الأبجدية إلى اللاتين . ومن اللاتين انتشرت فى العالم الغربى .

ولعل انتقال الأبجدية من الكنعانيين إلى العرب كان من طريق الآراميين ، لا من طريق العبرانيين ، ذلك لأن العربية والسريانية تكتبان بحروف موصولة .

وأما الأمر الباطن أو الغامض فهو أننا نعلم أن الأبجدية وصلت إلينا اثنين وعشرين حرفا من الكنعانية إلى الآرامية إلى العربية ؛ غير أننا نجيز لأنفسنا أن نقول إن الأبجدية (أى مجموع الحروف المعبرة عن الأصوات) كانت قبل الكنعانيين (أى قبل إن تصل إلى الكنعانيين) أقل من اثنين وعشرين حرفاً ، لما أنها أصبحت بعد أن حملها الكنعانيون إلى الإغريق أكثر من اثنين وعشرين حرفاً .

وتعليل ذلك ليس مستعصيا إذا درسنا الحقائق التالية :

إن العبرانية زادت حرفا (مشتقا صوت السين) .

وإن الأبجدية الإغريقية زادت حرفين مركبين ، وتبدل فيها أحرف ، أشهرها العين التى أصبحت واوا قصيرة مفخمة .

وأما اللاتينية فنشأ فيها ياء جديدة وقاف

(إذا كان فى الكلمة كاف يتلوها حرفا علة) :

(*) ألقى البحث فى الجلسة التاسعة ٧ / ٣ / ١٩٨٥ م .

كما احتاجت اللاتينيه إلى حرف يقع فى الكلمات المستعارة من اللغة اليونانية . وغفلت جميع الأمم إلاالعرب عن دقةالتمييز بين الأصوات المقاربة فى لغاتهافكتبت أصواتا متقاربة أو متباعدة بحرف واحد ، من ذلك مثلا أن صوت الكاف وصوت الخاء يكتبان فى السريانية والعبرية بحرف واحد ، على بعد ما بينهما فى المخرج

وأما العرب فرادوا فى الأبجديه سته أحرف يجمعها قولك (تخذ ضظع) هذه الأحرف الستة تمثل أصواتا موجودة فى اللغه العربية وأصواتا مفرقة فى لغات غيرها

تنبه الإنكليز لثلاثة أصوات فى لغتهم الثاء والذال والظاء فكتبوها كلها بمجموع واحد مؤلف من حرفين . فقالوا thin (ثن - بالكسر) و the (دا ، دى) thus (ظس — بالفتح) .

ومثل ذلك فعل الألمان بصوت الخاء الخفيفة أو الثقيلة وفعل الاسكتلنديون بصوت الخاء فكتبوه جميعهم بحرفين ch و doch (بالألمانية) ثم Loch (اسم بحيرة فى اسكتلندة بالإنكليزية .)

وأما صوتا الضاد والطاء فموجودان فى لغات كثيرة ، سأكتفى من الأمثله بما يلى :

« إن الكلمة الفرنسية ich والكلمة الإنكليزية done والكلمة الألمانية Dorf (وهى كلها بضاد واضحة) تكتب فى اللغات الثلاث بالدال .

* * وأن الكلمة الفرنسية temps والكلمة الإنكليزية tall والكلمة الألمانية Teufel (وهى كلها بطاء واضحة) تكتب فى اللغات الثلاث بالتاء .

* * *

هذه المقدمة الطويلة كانت ضرورية للانتقال إلى الأصوات الغامضة التى يعبر عنها بحرفين وهى فى الأصل صوت واحد سمعته الأمم سماعا مختلفا . واسمحوا أن أبدا من اللغة الأحبية كيلا يظن بى شىء من الميل على لغتنا القويمة . وسأقصر كلامى هنا على حرف الباء وحرف الفاء . ولكن يحسن أن نعلم أن هناك باء واضحة وباء مهموسة ثم فاء واضحة وفاء مهموسة

— إن شهر نيسان يعرف فى اللغة اللاتينية باللفظ april (بباء مهموسة (ويجىء بالفرنسية avril (بفاءمهموسة) وبالإسبانية abril (بباء واضحـــة) وبالإنكليزية والألمانية والهولندية والإيطاليةapril, aprile (بباء مهموسة) .

— ويصيح الذين يسمعون الألفاظ أحيانا بين الأصوات وظلالها . قال الإنكليز للقرد ape ، وقال الألمان Affe وقال الألمان للتفاح Apfel (بباء مهموسة بعدها إفاء واضحة ا وقال الإنكليز apple (ببائين مهموسين) .

وسأتناول الكلمات الغريبة الحائرة بين الباء والفاء من جانبين من جانب يتناول الكلمات عند انتقالها فى ضوء التاريخ من الأمم الأجنبية إلى العرب ثم من الجانب الذى تقلب فيه الكلمات العربيه على اللسان العربى

كان للعرب من قبل الإسلام احتكاك باليونان والرومان والهنود والفرس وجميع هذه الأمم تعرف الباءين: الواضحة والمهموسة سمعوا من الهنود أو من الفرس كلمة (بيل) فقالوا فيها ·فيل. وسمعوا من الفرس. پارس فقالوا فيها فارس والفردق والفايد والفرسخ وسمعوا من اليونان بارا ديوس وبلاطون وبيثاغورس فقالوا فيها: الفردوس وأفلاطون وفيثاغورس. ولكنهم سمعوا من اليونان أيضا بريمنياس (أحد كتب أرسطو فى المنطق) فتركوها باريمنياس ثم سمعوا أيضا فيليستين (اسم شعب جاء جزيرة كريت) وفيلوسو فيافتركوهما بالفاء. فلسطين وفلسفة.

* * *

ونأتى الآن إلى كلمات تقال فى العربية بالباء وبالفاء، والمعنى بالحرفين واحد أو كالواحد

لا أظن أن أحدا مما يستعرب إذا قيل له إن حرفى الجر الباء المكسورة والفاء، المكسورة المشبعه بالياء، صوت واحد فى الأصل ثم إن الفعلين باء وفاء معناهما «رجع» (فى المعجم الوسيط) ثم هالك بأر، وفأر بمعنى حفر. ونقر البطن شقه. وفقر الأرض شقها وخفر الأرض شقها وحفرها والعامة يقولون فى حفر فحر ثم هالك حباه وحماه بمعنى أعطاه ثم نقع الجلد خالط لونه لون آخر ونقع اللون الأصفر.

ومن هذا الباب خبت ذكره خفى وخمت بصوته أخفاه. هفت الريح هت. ونجى اختفى ثم تخفى استقر وتوارى. ومن ذلك أيضا برق فرع ودهش ثم افرق جرع واشتد خوفه

* * *

هذه جولة قصيرة فى القاموس — وفى جانب واحد منه — دارت حول جانب من فقه اللغة المقارن، لم أقصد أن آتى بهذه الجولة على جميع ما يمكن أن يقال فيها ولكنى أقصد أن أفتح نافذة صغيرة على الثروة العظيمة الجميلة فى لغتنا العربية فى ذلك الدور القديم من تاريخها حينما كان الصوت معبرا عن المعنى أو حينما حاول الإنسان أن يعبر بالصوت عن المعنى فى ذلك الحين. لم يكن هالك فرق بين لغة ولغة. سأفتح فى هذا المقطع الأخير الباقى من كلمتى هذه نافذة أصغر بكلمة واحدة هى موضوع جديد.

فى اللغة العربية جاءت اللام مع الهمزه أو مع الهاء ومع الواو، للدلالة على الصوت المرتفع فى الحزن والألم أو فى الفرح والنشاط وكادت الهاء مع اللام تختص برفع الصوت بالتلبيه أو الدعاء فى المواسم الدينيه. والتهليل

فى الحج فى الإسلام أمر مشهور (راجع تاج العروس القاهرة٧ : ٣١١ و٨ ٠ ١٦٠ ١٧١ ، ١٧٣ ، راجع ١٧٧) وليس من المستغرب أن نجد مثل ذلك فى المالية والعبرية فهما لغتان أعرابيتان . ولكن لعل غريبا مما يستغربون أن يجدو هذا الصوت فى اللغة الإنكليزيه معبرا عن مثل ما يعبر عنه فى اللغة العربية إن هذا الصوت انفعالى (لا إرادى) يبدر من الإنسان فى حالة الطرب (من الفرح أو الحزن) ومن الحماسة فى الحرب . وأغرب من ذلك أن يكون هذا الصوت قد انتقل من اللغات الأعرابية إلى اليونانية أو إلى البيزنطية (اليونانية المتأخرة والمسيحية) على الأصح ثم إلى الإنكليزية والفرنسية والإيطاليه والألمانية والإسبانية وإلى سائر اللغات التى ينطق بها المسيحيون فى العالم . وتتردد هذه الكلمة هلليلويا فى هذه اللغات بين البدء بالهمزة أو البدء بالهاء كما أنها فى العربية حائرة بين الهمزة والهاء أيضا . الآ ليل والتهليل وقد أنصف « المعجم الكبير » (١ . ٤٢٥ — ٤٣٢) هذا الجذر «ال» من ناحية الاشتقاق والشواهد

أما صلة « ال » و «هل» بهذا البحث بين الماء والفاء فهو لفت النظر إلى الحروف التى يحل بعضها مكان بعض فى اللغة العربية وفى سائر اللغات ، وذلك لتقسيم مراحل اللغة ثلاثة أدوار

— الدور الصوتى . حينما كان لفظ الكلمة يدل على معناها

— الدور النطقى . حينما احتاج الإنسان إلى التعبير عن معان وأشياء فتواضع على ألفاظ لا صلة بها بين الصوت والمعنى

— الدور الاجتماعى حينما نقل الإنسان الألفاظ من جانب إلى جانب على سبيل المجاز مما لا صلة ، بالتواضع على ألفاظ معينة ولا بالصوت .

أرجو أن أكون بهذه الكلمة التى طالت قليلا قد أشرت إلى موضوع ذى صلة بفقه اللغة المقارن وبمكانة اللغة العربية فى هذا الحقل الواسع من البحث .

عمر فروخ
عضو المجمع من لبنان